Journal of the University of Babylon for Humanities مَجلّةُ جَامعةِ بَابِل للعُلُومِ الإنسَانيّة
Vol. 31/ No. 1/ 2023 المجلد 31/ العدد1/ 2023

بلاغة الذات ونظامها في بحث ثنائية الأنا والآخر في نونية المثقب العبدي

عبدالقادر علي باعيسى
قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة حضرموت/ الجمهورية اليمنية
Baaesa11@gmail.com

تاريخ استلام البحث: 16/ 11/ 2022 تاريخ قبول النشر: 2022/12/5 تاريخ نشر البحث: 15 /1/ 2023

المستخلص:

يسعى هذا البحث للكشف عما أسهم به بحث (ثنائية (الأنا) و (الآخر) في نونية المثقب العبدي) للدكتور عبدالله حسين البار من إشارات اختزلت كثيرا من المعاني التي هي بحاجة إلى مزيد من إبراز عمقها الدلالي من خلال تتبع نواتج الثنائيات الضدية في البحث موضع القراءة، ونظام تحليله، مستنهجين في قراءتنا قانون التضاد نفسه الذي اتخذه بحث د. البار، ومركزين على عدم اكتفاء اللسانيات بتوظيف مقولة الثنائيات الضدية من جهة الكلمات فقط، بل من جهة بناء النص، حتى تجاوزت ثنائية الذات والآخر معنى التكامل بين طرفي الثنائية بالمفهوم البنيوي إلى الاختلاف المستمر بالمفهوم التفكيكي، وفق الترتيب الآتي: ثنائية الذات/ فاطمة. ثنائية الذات/ الناقة. ثنائية الذات/ عمرو. ثنائية الذات/ القادمين في المستقبل.

الكلمات الدالة: الذات. الآخر. المثقب العبدي. التضاد.

The Rhetoric of Self and its System in Examining the Self-Other Dichotomy in Noniyat Al-Muthaqb Al- Abdi

Abdulqader Ali Baessa
Department of Arabic/ College of Arts/ Hadhramout University/ Republic of Yemen

Abstract:

This research aims at investigating the contributions of Abdullah Haussein Al-bar's research the Duality of the Ego and the other in Noniyat Al-Muthaqb Al-Abdi with reference to the so many signs that research provides. These signs encode many meanings that need further investigation to show their semantic depth through tracing their antonymic dualities. The researcher in the current study employed the same antonym technique employed in the research under investigation as this technique produces meaning.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

The researcher did not only use antonym with reference to words but also with reference to text features and signs. Thus, the ego and the other duality here goes beyond the structuralist concept of integration to the deconstructionist concept of constant difference as in these arrangements; the duality of ego / Fatemah, the duality of the ego / she camel, the duality of the ego / Amr, the duality of the ego / the comers in future.

Key words: The ego, the other, Al-Muthaqb Al-Abdi, antonymy.

المقدمة:

إذا كانت ثنائية (الذات) و(الآخر) قد اهتمت في الدراسات الحديثة لاسيما الدراسات ما بعد الاستعمارية بكشف مركزية (الذات) في العلاقات البشرية، ومن ثم إظهار استراتيجيتها على حساب الآخر في كثير من النصوص بما فيها الأدبية، فإنها تتمظهر في تشكيلات مختلفة قد تكون شخصية وقد تكون اجتماعية، وقد تكون أممية، "ففي الهوية الثقافية تشتغل جدلية الذات والآخر، وتعيد كل جماعة بشرية تأويل ثقافتها من خلال اتصالاتها الثقافية"[1: 57] وإذا كان النظر إلى الآخر "الهامشي ينبني على فكرة دونيته، inferior والتقليل من شأنه واستنكار دوره في لعبة الحراك الاجتماعي/الثقافي"[2: 95] فإنه "بوسع المرء اكتشاف الآخرين في ذاته، وإدراك أنه ليس جوهرا متجانسا وغريبا بشكل جذري عن كل ما ليس هو: فأنا آخر، لكن الآخرين أيضا أنوات: إنهم ذوات، شأنهم في ذلك شأني، لا تفصلهم ولا تميزهم بشكل حقيقي عن نفسي غير وجهة نظري، والتي بموجبها يعتبرون بعيدين، بينما أكون أنا وحدي"[3: 9] وبوسع المر أن يتصور "هؤلاء الآخرين كتجريد، كحالة من حالات التكوين النفسي لأي فرد، بوصفهم الآخر– الآخر بالقياس إلى نفسي، بالقياس إلي"[3: 9]. وعليه "لا يمكن الحديث عن الآخر بمعزل عن الذات"[4: 4] وقد تجنب د. البار إيراد مفهوم (الأنا) في متن بحثه، وإن أورده في عنوانه، مستخدما بدلا عنه مفهوم الذات الذي سنميل إلى استخدامه التزاما لأمانة النقل عن البحث موضع القراءة، ولكون مفهوم (الأنا) Ego يدخل في تداعيات متعددة وغامضة منها أنه يسعى لكسب المعركة ضد الطبيعة، وضد الآخرين من الناس، وضد الدوافع السلوكية التي تحركه، ويرتبط بوظائف السيطرة والحكم والتنظيم، ولم يتحرر بعد من كثير من حمولاته وشوائبه الفلسفية[4: 4–5] فضلا عن "أن لفظ (الأنا) في العربية المعاصرة، إنما هو ترجمة لأداء معنى Le moi بالفرنسية، وEgo بالانجليزية والألمانية، وكلمة Ego لاتينية تدل على ما تدل عليه كلمة (ذات) في اللغة العربية، حيث يقصد بها الشخص المتكلم، ومن هذه الكلمة اشتقت مصطلحات أخرى مثل Egocentrismوهو ما نترجمه اليوم (بالتمركز حول الذات) وكذلك Egoism بمعنى الأنانية في الاستعمال اللغوي العام"[4: 4].

ونعني (بالبلاغة) في عنوان البحث ما تجلى من نواتج دلالية في بحث د. البار سواء من خلال متابعتنا المتضادات أو آليات التحول التي كانت تفضي من خلال تنقلها من موضوعة إلى أخرى إلى تشكيل (نظام) دعا هذا البحث إلى مزيد من القراءة والاستقصاء. وجاء الاهتمام (بالذات) دون (الآخر) لكونها شكلت مرتكزا أساسيا

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

مهيمنا مقابل آخر متعدد، وغير متجانس، وجزئي، تداخلت معه وانفصلت عنه بأشكال متعددة، هي كما يبينها متن البحث:

أولا: ثنائية الذات/ فاطمة:

رغم أن الآخر– المرأة يرتبط بالإقصاء والنبذ فإنه يمثل جانبا آخر هو رغبة الذات في ضم الآخر إليها، وذلك وفق "تصور الذات المتكلمة في النص لمعنى الوجود، وكيف ينبغي أن يكون"[5: 32] وقد رامت الذات وصلا بفاطمة، لكنه لم يتحقق مما استثار غضبها ودعاها إلى إعلان حالة قطع تظهر معها الذات المتكلمة طاغية الحضور على حسب تدفق انفعال المتكلم وتوهج مشاعره[5: 32– 33] وفي هذا ما يشير إلى أن الذات ظلت تنظر إلى الآخر في الأربعة الأبيات الأولى من القصيدة بوصفه عنصرا أساسيا لإبراز هيمنتها، وفي هذه الحالة تمثل الذات أداة لمعرفة علاقة اجتماعية– ثقافية ولكن بطريقة تتكسر فيها الهيمنة في صورتها الطاغية للرجل من خلال محاولة الاقتراب من الآخر– المرأة عبر بعد نفسي– عشقي، فإقصاء الآخر في هذه الحالة هو جزء من إقصاء الذات نفسها عن وجودها، فرغم فعل العنف ثمة مسافة عاطفية داخلية لم تنقطع، وهو ما عبر عنه بحث د. البار إجمالا (بموضوع التعمير والتدمير)[5: 33] لاسيما من جهة الذات التي لا تريد أن تفقد وجودها بفقدان الآخر. إننا أمام فعلين: فعل مجتمعي ثقافي لا يريد فيه الرجل الخضوع للمرأة، وفعل عشقي– وجداني يرغمه على ذلك، فالذات بالمعنى الاجتماعي تضع نفسها بوصفها قيمة عليا انطلاقا من رؤيتها المعيارية لذاتها حسب مواضعات المجتمع، لكنها ليست كذلك مادامت مرتبطة بحيوية حركة أخرى تفرض نفسها عليها، هي حركة الولع بالحبيبة بحيث تجتمع (الذات) بـــ (الآخر) وتفترق عنه في هذه الأبيات الأربعة. ومن ثم ففضاء الذات غير موحد في الوحدة الأولى من القصيدة إذ تشيع في النص "حالة من الانقطاع والانفصال عن الوجود مع الآخر مشوبة بتشهي الاقتران به وفق تصور الذات المتكلمة في النص لمعنى الوجود، وكيف ينبغي أن يكون"[5: 32]:

أفاطم قبل بينك متعيني ومنعك ما سألت كأن تبيني
ولا تعدي مواعد كاذبات تمر بها رياح الصيف دوني
فإني لو تخالفني شمالي خلافك ما وصلت بها يميني
إذا لقطعتها ولقلت بيني كذلك أجتوي من يجتويني [6: 23][1]

الذات هنا ذات طبيعة مزدوجة، فهي متعالية في الوقت الذي ترغب في التنازل للحبيبة، فتظهر لذلك منشطرة بين الاجتماعي والنفسي، إذ ليس ثمة قطع مطلق بل انجذاب أيضا، ومن ثم فالثنائية ليست حادة، والذات ليست خالصة لفعل الإقصاء فقط.

لقد اشتغلت ثنائية (الذات والآخر) بوصفها أداة لنقل حركة الذات المتكلمة المضطربة، وتمظهرت بوصفها دالا على وجودها الاجتماعي والنفسي عبر خصائص التعبيرات اللفظية (قبل بينك متعيني) (ولا تعدي

[1] تبيني: تفارقي. أجتوي: أكره.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

مواعد كاذبات) (فإني لو تخالفني شمالي ما وصلت بها يميني) (ولقلت بيني) (كذلك أجتوي من يجتويني) وهنا يظهر الآخر– فاطمة فارضا إرادته على الذات من خلال تمنعه، وبلسان الذات المتكلمة نفسها، فالطرفان كلاهما يحمل كل منهما إمكانية إقصاء الآخر، وفق تشكلهما في القصيدة، وفي هذا ما فيه من "سطوع حال الدرامية في هذه الوحدة من وحدات النص"[5: 33].

ينتج عن هذا أن محاولة الإقصاء والتقريب حالان متفاعلان شكلا مصدرا مهما لتنشيط بلاغة القصيدة، وتعميق دلالاتها عبر ثنائية الأبعاد الآخَرية/ الغزلية (الإقصاء/ الانجذاب) التي قدمت ملفوظاتها لتعيين كليهما "من حيث إن الذات المتكلمة تروم وصلا بفاطمة لكنه لم يتحقق، يدلك عليه استخدام الهمزة أداة للنداء، ودلالتها على مناداة القريب ظاهرة، واستخدام فعل الأمر لطلب المتاع (متعيني) والنهي الدال على الالتماس والرجاء (لا تعدي مواعد كاذبات) فاستثار ذلك غضب الذات المتكلمة، ودعاها إلى إعلان حالة القطع والهجر والبين (منعك ما سألت كأن تبيني) والتحدي (لو تخالفني شمالي خلافك ما وصلت بها يميني) والجهر بالكراهية (كذلك أجتوي من يجتويني) وهي مشاكلة تنبئ عن عمق الاستجابة لمثيرات الحياة"[5: 32– 33] فالمسافة بين الذات والآخر في هذه الوحدة متداخلة، يمارس كل فيها سلطته على الآخر، لاسيما أن الذات ترغب في الاقتراب من الآخر (فاطمة) مما يشير إلى حال الانجذاب الذي دفع بالذات إلى تأكيد الجانب العشقي ابتداء منذ مطلع القصيدة:

أفاطم قبل بينك متعيني ومنعك ما سألت كأن تبيني

تتأخر الذات الاجتماعية في هذا المقام الذي تظهر فيه أهمية الآخر من خلال بروز اسمه متصدرا البيت الأول من القصيدة ومخاطبته بنغمة تدليل مرخمة (أفاطم) واحتلال ضمير المخاطَبة وضمير المخاطِب متجاورين موقعا مركزيا في آخر كلمة في شطر البيت الأول (متعيني) مع تقدم ضمير الآخر، بحيث يمكننا أن نقول إن مشروع الذات هو مشروع عشقي بالأساس رافقته تجليات قدرة اجتماعية رجولية راغبة في التحدي، فموقع الآخر يتشكل داخل موقع الذات نفسها في استشعارها وجودها، وقد أشار بحث د. البار إلى ذلك بعدة إشارات، منها ""تشهي الاقتران بالآخر وفق تصور الذات المتكلمة في النص لمعنى الوجود، وكيف ينبغي أن يكون"[5: 32] و"وهي مشاكلة تنبئ عن عنف الاستجابة لمثيرات الحياة"[5: 33].

وعليه فالذات هنا تقوم على تنوع يقدمها بوصفها ذاتا خاصة متعددة الجوانب، وفي إطار هذا التنوع يبرز وعيها بوجودها من حيث كونها مليئة بالحياة، بكل نعمها وإشكالاتها، وهو ما يثري صورة الآخر أيضا. إنها ذات حلمية واجتماعية وعشقية وشهوية، تبحث عن حال تساكن مع الآخر في الوقت الذي تبحث عن حالة صراع معه، وربما انبتات عنه كنتيجة محتملة إن لزم الأمر.

وفي الوحدة الثانية من القصيدة، حسب بحث د. البار، أول ما يمكننا ملاحظته هو هؤلاء النساء الظاعنات مقابل امرأة واحدة سبق الحديث عنها في الوحدة الأولى، لكن الانفصال والاتصال مازالا موجودين إذ "تجيء الأبيات من (5– 18) لتنفتح على علاقة انفصال بين الذات المتكلمة والظعائن من حيث إن الأولى حالّة والثانية

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

مرتحلة، الأولى مستفهمة والثانية مستفهم عنه (لمن ظعن تطالع عن ضبيب، وخرجت من الوادي)[5: 33– 34] والانفصال يضيف إلى التنوع السابق وفق خصوصية هذه الوحدة التي تعمل على زيادة سعادة الذات وإثراء وجودها من خلال وصف حركة النساء الراحلات عبر أمكنة بدت حميمة إليها نظرا لمرور فاطمة عليها (ضبيب/ الوادي/ شراف/ ذات رجل/ الذرانح/ فلج) إذ تم تحويل العالم الخارجي إلى فضاء حميم غير منفصل، وأعطت الذات لنفسها خصوصية المقيم لا الراحل[5: 33– 34] لتموضع نفسها في إطار الهيمنة، ولتجذر وجودها من خلال رسم التصورات التي تريد عبر وقائع مكانية تتسم بالتعدد صعودا وهبوطا، وضيقا وانفساحا، لكنها في غاية الترابط لمرور فاطمة عليها في رحلتها التي تحول الطريق المتعدد من صحراوي وجبلي وغير ذلك إلى طريق جمالي خاص لكونها تمر فيه. وفي الإشارة إلى هذه الأمكنة احتفاء بها وقد تحولت إلى نظام متصل بفاطمة، فهي مظاهر خارجية، ولكنها تداخلت في نظام الروح المتعلقة بفاطمة، فنحن أمام صورة مثلى لهذه العلاقة التي يتبدى فيها الاتصال من خلال شدة الانفصال (السفر) في ارتباطه بالنسبة إلى الذات بوجود أساسي فيها هو المحبة، ولذلك تتحول الرحلة إلى باعث للسعادة فتتجلى أشياء العالم الصلب (الجبال/ السهول/ الأودية) حيوية تحت أسئلة المستفهم الثابت في خصوصيته العشقية، وقد رسم تجربته عبر الآخر الباعث للبهجة لا بوجوده حسب بل بما يتصل به من موجودات أيضا، وبذلك تنزع الذات بذاتها وبالآخر وما يتصل به إلى تجل أعلى لها، له تكثيف خاص في التصور يتسع باتساع المكان ومدى الرحلة الزمني إذ يتعمق النظر الشعري بضم أشياء إضافية إلى فاطمة فلا يخلو منها محتوى المكان والزمان.

لقد انزاحت "تلك العلاقة [علاقة الانفصال] إلى أخرى تضادها يمثلها حرص الذات المتكلمة على تتبع حركة الظعائن (مررن/ نكبن/ قطعن فلجا..."[5: 34] ولا يمكن لرحلة بهذه الفاعلية التي يتضخم فيها كل شيء لإبرازه إلا أن تموضع حمولتهن في إطار مشبه به ضخم هو السفن (كأن حملهن على سفين) كما لو كان مجموع هذا التعدد والضخامة من الأمكنة سيروى عطش السؤال (لمن ظعن؟) فينشط لذلك الفضول الشعري متابعا مجريات الرحلة، وفي هذا مازالت الذات تتموضع في سياق فاطمة الذي هو بالأساس سياقها الذي صنعته شعريا ووجدانيا، وقد توالت المعارف نحويا دالة على الضخامة، فهذه أسماء أعلام دالة على تلك الأمكنة. ولا تريد الذات المكوث في نقطة واحدة من ولعها بالآخر، تريد أن تتسع به، وبكل ما يتصل به، فترسل معانيها الدالة على ذلك بشغف، إنها لا تسأل حتى تضعف، ولكنها تتعجب من خلال السؤال الذي ترسم معجباته بذاتها:

لمن ظعن تطالع من ضبيب فما خرجت من الوادي لحين
مررن على شراف فذات رحل ونكبن الذرائح باليمين
وهن كذاك حين قطعن فلجا كأن حملهن على سفين[6: 142– 148][2]

[2] ضبيب، وشراف، وذات رجل، والذرانح، وفلج: أسماء مواضع. لحين: بعد حين. نكبن: عدلن وتنحين.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

لقد تم وصف أشيائهن (كأن حمولهن على سفين) ووصف أحوالهن (هن على الرجائز واكنات...) ليبلغ الاتصال أقصى مداه حين يفور تشهي الذات الظعائن فتبرزه في صورة تقريها محاسن من محاسنهن[5: 34] وبهذا تثري الذات وجودها من خلال إثرائها الآخر عبر هذا التصور التفاعلي الذي تقيمه معه وما يتصل به من أمكنة، وما تتصل به من أشياء (الكلة/ الرقم/ الوصاوص/ الهوادج/ الديباج/ الذهب) وهو ما يقدم منظورا شعريا أوسع لإدراك الذات لوجودها بحيث تنظر إلى الآخر المعشوق بتلك الضخامة، لاسيما أنه توجد داخل هذه الثنائية (ثنائية الذات/ فاطمة) ثنائيات أخرى عملت عل تنشيط هذه الثنائية الكبيرة مثل ثنائية الذات الاجتماعية/ النفسية (العشقية) والتقابلات اللغوية بين ضمائر الذات/ الآخر، وتنوع الأماكن جبالا/ أودية، مما يلحظ معه تطور الذات وتشعبها داخل النص، وانطلاقها من الحاضر نحو القادم، ومن العنف نحو الحلم، متعايشة مع خطابها ومتصارعة داخله مع الآخر صراعا منتجا، فترغب في الاختلاف معه الذي يغدو مردوده لصالحها بحيث لا تبقى مشدودة إلى ماضيها معه، بل إلى حاضرها وقادم أيامها. إنها تجد ذاتها من خلال بث البهجة في وجود الآخر من خلال ما سبق، ومن خلال "اللطافة والحنان في تشبيههن (بالغزلان) وفي جلاء هيئتهن الجسدية (محاسن من الديباج/ البشر المصون/ الذهب على تريب، وهو أعلى الصدر)"[5: 34] ولأن الذات هي الراسمة لهذه الصفات فإنها تتوسع على تضاريس جسد الآخر وما يتصل به، فتضع الأوصاف والوقائع التي تريد وتتكثر منها في صور ودلالات مرسومة بمحبة ومنتظمة في إطار ابتكارها للآخر الذي تحلم بضمه إليها، مما يمنحها الإحساس بذاتها عبر الجواب الذي تنجزه شعريا كيفما تريد، وليس عبر السؤال فقط، وذلك بفعل هذه المسافة من العلاقة التي تقاربت بينهما:

يشبهن السفين وهن بخت عراضات الأباهر والشؤون
وهن على الرجائز واكنات قواتل كل أشجع مستكين
كغزلان خذلن بذات ضال تنوش الدانيات من الغصون
ظهرن بكلة وسدلن رقما وثقبن الوصاوص للعيون
أرين محاسنا وكنن أخرى من الديباج والبشر المصون [6: 149– 158][3]

الذات هنا بناءة ترسم معالم وجودها عبر إحساسها بجمال الآخر، وإمكانية إيجاده شعريا، فهي لا تنتهي معه عند حد، كلما أنهت جانبا دخلت جانبا آخر، فمن قول متعلق بالرحلة، إلى قول متعلق بمعالم الطريق، إلى آخر متعلق بوسيلة النقل، فمكان الجلوس, فالأشياء الملبوسة، إلى التماثل مع موجودات الخارج كالغزلان، فلا تلغي الذات وجودها مع الآخر رغم ما حدث منه من استعصاء عليها في ما سبق، بخلاف ما حدث مع ذوات

[3] بخت: طوال الأعناق. عراضات: عريضات. الأباهر: الظهور. الشؤون: شعب قبائل الرأس التي تجري منها الدموع إلى العينين. الرجائز: الهوادج. واكنات: مطمئنات. مستكين: خاضع. خذلن: خرجن عن القطيع. ذات ضال: موضع. تنوش: تتناول. الكلة: ستر رقيق يوضع على الهودج. الرقم: البرود، أو ضرب مخطط من الوشي. الوصاوص: البراقع.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

أخرى في القصيدة سيأتي الحديث عنها لاحقا، ذلك لأن الكينونة الوجودية والحياتية لا تكون إلا مع هذا الآخر النوعي (المعشوق) إنه الآخر الفردوس، تتمادى معه، وتستمر، ولا تقطعه، بوصفه داخلا في صميم تشكيل كينونتها، تقبل من خلاله على الحياة بتدفق وجمال حتى تغرق في وجوده الذي تحوله تلقائيا إلى مرتكز كبير لحياتها انطلاقا من حاجتها إليه بدافع الكينونة الوجودية و "يبلغ الاتصال أقصى مداه حين يفور تشهي الذات الظعائن"[5: 34] فرغم أن الآخر من اختياراتها فإنها غير متحققة إلا به، وأن تجعله لها همّاً يعني أن تفعّل معه تجربة الاختلاف لصالح حيوية القصيدة والحياة معا "وتلخص ذلك كله بجهرها بالاشتهاء (هن على الظلام مطلبات/ بتلهية أريش بها سهامي) وهي دوال متناظرة تمنح منتجا دلاليا بعينه، وهو الاتصال الحميم (بالآخر) والالتحام به. وهو اتصال مشوب بحرص (الذات) على أن يكون متسقا مع طرائقها في الحياة، ووجودها مع الآخر، فتلبي رغباته دون اعتراض"5: 34– 35]:

وهن على الظلام مطلبات طويلات الذوائب والقرون

بتلهية أريش بها سهامي تبذ المرشقات من القطين[6: 160– 162][4]

وفي هذه الحالة تبدو فاطمة إحدى مثل الذات الهادفة إليها ذلك لأنها (تتشهاها) بتعبير بحث د. البار، فالحياة مثلى تحمل الاتصال حتى في عمق الانفصال، ولم تعد العلاقة هنا ثنائية بين ذات وآخر، وإنما حالة واحدة مكونة من طرفين تم تفعيل نموذج العلاقة بينهما عبر أحوال من المناجاة والتحدي والدرامية[5: 33] وفق المقصد الذي رسمته الذات لنفسها.

والذات هنا متشابكة مع الآخر عبر توالٍ زمني (مررن/ نكبن/ قطعن/ ظهرن) يشكل جزءا من بلاغة النص التي ترابط بين الذات والأمكنة والزمن والموجودات بالارتكاز على أيقونة خاصة هي فاطمة، وهذه المناظر المشاهدة تباعا وفقا لتسلسل الزمن بقدر ما تبتعد عن الذات تقترب منها، فإذا كانت فاطمة تمثل برحيلها بعدا، فإن الذات بهذا الوصف الولوع برحلتها تقوم بعملية تقريب لها، وهو ما يكشف عن علاقة ظاهرية/ باطنية في هذه الوحدة من القصيدة من نتائجها التمديد في وصف حركات السفر المتتابعة المتصلة برغبة الإمتاع الواردة في أول بيت في القصيدة : (متعيني) ولأنها أبت إلا أن تسافر وتغادره فقد أفصح الإمتاع عن نفسه بطريقة أخرى هي التي نتحدث عنها الآن إذ يزيد الامتداد في المكان والزمان من حدة الاستمتاع بها، وقد غدت الأشياء الخارجية جزءا من علاقة الذات بفاطمة، ودلت على قوة التشابك معها.

[4] الظلام بكسر الظاء: الظلم. الذوائب: الشعر المظفور. القرون: جمع قرن، وهي كل ظفيرة من ظفائر الشعر. التلهية: اللهو. أريش بها سهامي: أركب عليه الريش. يقول أريش حديثي بما يزين النساء، فيقع في قلوبهن متمكنا كتمكن السهم إذا ريش. تبذ: تسبق وتغلب. المرشقات: اللواتي تمد أعناقها وتستشرف للنظر. القطين: صواحبها من النساء.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

ورغم أن الزمن ماضوي في الأبيات (مررن/ نكبن/ قطعن/ ظهرن) فإنه يشير إلى لحظة الآن، لحظة المشاهدة، بوصفها تمثل "مركز العلاقات الزمنية"[7: 48] في عالم الذات المتكلمة، "إن النقطة المركزية في العلاقات الزمنية الإدراكية، ما يتعلق منها باللحظات المتتابعة، إذ من الضروري التوفر على القدرة لإدراك الحاضر والماضي، معا، بصورة كلية. ذلك أن العلاقة بين اللحظة الحاضرة واللحظات الماضية، من هذه الزاوية الإدراكية، هي التي توفر الإحساس بالتتابع، وهو إحساس يقود بدوره إلى تصور الزمان ممتدا من الماضي إلى المستقبل"[7: 48] والغاية من هذا الامتداد والإطالة هو زيادة الاشتهاء (هن على الظلام مطلبات/ بتلهية أريش بها سهامي[5: 34].

فعلى ظلمهن هن مطلوبات، وتزداد السعادة بهن وتقوى كمن يضيف الريش إلى سهامه منتشيا ببحثه عن الأجمل من الظباء في القطيع المادات أعناقهن الطويلة للاستشراف، والمراد هنا فاطمة والنساء التوابع لها. ولأن فاطمة هي الجهة الجمالية المقصودة، فقد اصطبغت الأشياء والحيوان بجمالها، وانزاحت عن معانيها المعجمية إلى معانيها التصويرية فغدت حركاتها تمثيلا فضائيا واسعا لحركات فاطمة وما تتصل به (السفن المائجة في البحر) و(الغزلان المنطلقة في البر).

وهن كذاك حين قطعن فلجا كأن حمولهن على سفين
يشبهن السفين وهن بخت عُراضات الأباهر والشؤون
وهن على الرجائز واكنات قواتل كل أشجع مستكين
كغزلان خذلن بذات ضال تنوش الدانيات من الغصون

ولكن بعد هذا التعلق الشديد والوصل الذي بدا عبر الانفصال تظهر لدى الذات حالة خوف أخرى من الانفصال. لقد رغبت في الوصل مع الآخر (فاطمة) في أول القصيدة، فانفصل عنها، فأعادته إليها شعريا، ولكنها الآن تبدأ حالة قطع جديدة معه، في مرحلة أخرى من العلاقة. لقد "استحالت علاقة الاتصال إلى ما يضادها، فنجد (الصمت) الدال على انقطاع التواصل مع الآخرين (لم يرجعن قائلة لحين) ونجد التحدي والهجران (شد رحلي/ لهاجرة نصبت لها جبيني.../ونجد القطيعة والفراق/صرمت الحبل/ كذلك أكون...) وهو دوال متناظرة تمنح منتجا دلاليا واحدا هو الانقطاع والانفصال"[5: 35]:

علون رباوة وهبطن غيبا فلم يرجعن قائلة لحين
فقلت لبعضهن وشد رحلي لهاجرة نصبت لها جبيني
لعلك إن صرمت الحبل مني كذاك أكون مصحبتي قَروني[6: 163-165][5]

[5] الرباوة: ما ارتفع من الأرض. الغيب: ما اطمأن منها واختفى. فلم يرجعن قائلة لحين: لم يكدن يقِلن أو يسترحن، والقائلة هي النائمة المستريحة في القيلولة، وهي الظهيرة. الرحل: مركب يوضع على البعير والناقة. الهاجرة: شدة الحر في منتصف النهار. عصبت لها جبيني: عصبت رأسي بالعمامة لأتقي حرارة الشمس.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

وفي الواقع نحن ليس أمام انفصال بل أمام تفعيل جديد أو إثارة جديدة لواقع اتصال سيظهر بعدئذ مع الناقة، وهذه آلية بدت مألوفة لزيادة تفعيل الاتصال، فالانفصال كان ما قبل العلاقة مع فاطمة، أما الاتصال فقد تجسد في مفاصل القصيدة التي تم التعرض لها إلى الآن، مما يبرز معنى عميقا للذات، نموذجيا ومتفردا، وتغدو فاطمة – وهي الآخر– مثالا محققا لرغبات الذات العشقية. إننا أمام حالة واحدة لا أمام عناصر متنافرة بين (ذات وآخر) وإن بدت كذلك ظاهريا على سطح النص، وهذا ما أعطى النص غناه البلاغي من حيث عدم ارتكازه على آلية واحدة في التعبير عن غاية واحدة هي تضخيم الذات، وزيادة إبراز وجودها من خلال الآخر. وعليه لا تبدو فاطمة (بآخريتها) أكثر من كونها تعمل على تحقيق فرادة الذات فاتحة لها أفقا خاصا تستمتع من خلاله بجمالها وجمال ما يتعلق بها، ففاطمة وما يتصل بها من الأمكنة والأشياء مثير لإطلاق الذات في كامل سعادتها، وقد أعلنت القصيدة عن ذلك بتجليات تعبيرية مختلفة من الاتصال والانفصال.

وتسعى الذات من خلال تهديدها بالقطع مرارا (منعك ما سألت كأن تبيني) (كذلك أجتوي من يجتويني) (صرمت الحبل) (شد رحلي) (لهاجرة نصبت لها جبيني) لئلا يمارس عليها الآخر (فاطمة) نوعا من الإذلال، فجزء من مغزى القصيدة كامن في هذه القوة التي تمنحها لذاتها والتي تعطيها إمكانية قطع الآخر في أي لحظة تريد، كمن يريد إعادة الاعتبار إلى ذاته دائما، فتعطي الذات للآخر حضورا ثم تعلن عن إمكانية قطعه رغم علامات الحب التي أبدتها له. بل إن في موضوعة الرحلة ما يجعلها تميل ضمنيا نحو القطيعة، وإن كانت توظفها لصالحها، فتنساب في السعادة بجمال فاطمة وفق ما تريد.

إن الذات في عمق القصيدة تلاحظ ذاتها أكثر مما تلاحظ فاطمة، ولعل في هذا تعبير عن جانبين يزدادان الآن وضوحا تمت الإشارة إليهما في أول البحث هما الجانب الاجتماعي (الرجولي) الذي يتم إبرازه بشيء من القوة، فتحول الذات علاقة الحب إلى فعل تماسك وثبات لها في ظل محاولات القطع من قبل الآخر، فلا تنهار، ولا تغدو تابعة للآخر رغم عشقها له. ويتضح ذلك من خلال تكرار إعلانها إمكانية بتر العلاقة، وهي بهذا تعلن عن ميلاد نفسها مجددا بعد كل محاولة لقطعها عن عالم الحب، كما لو كان عالما معاديا، رافضة الاحتباس في تضييق الآخر وتمنّعه، وإن كان هو المحبوب نفسه، فالذات موضوعة مركزية في القصيدة تبحث عن إيجاد روابط لها مع الآخر، ولا تقدم نفسها مقابلة له مما بدت معه ملفوظات القصيدة ذات نظام قوي متفاعل مع الذات، ومنسجم معها (لا تعدي/ لقطعتها/ أجتوي/ يجتويني/ ما وصلت).

لقد دلت الذات على علاقة استعلائية لا تستطيع أن تتنازل عنها حتى في إطار الحب الذي تحرص على ألّا يتملكها، وقد كشفت عن هذه الاستعلائية من خلال العلاقة مع فاطمة، وتلك طبقة دفينة تعزز مشروع الذات في القصيدة، وطريقة توجيهها لخطابها، فهي بقدر اندفاعها في الحب تؤكد انعتاقها منه حتى بما هو ماهوية وجودية، بل إنها منذ إعلانها السؤال: (لمن ظعن؟) بدأت تتمرد على الآخر إذ شرعت في تحويله إلى جزء منها، مما نشأ معه خطاب القصيدة ذاتيا حتى اندغم البعد الماهوي للآخر في تأملات الذات نفسها، وظل ضمنيا في إطار الزائد

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

الذي يمكن بتره في أي لحظة، فلم تظهر فاعلية مشاركة له بقوة، ولم يسمح له بالظهور بصوت مقارع، ذلك لأنه ليس مستقلا كامل الاستقلالية مادام ثمة غاية أساسية لاحتوائه[6] "ويحدث أن يحاول طرف من الثنائية أن يشل حركة الطرف الآخر"[8: 100] وهذه الآخرية المرسومة لفاطمة أشبه بانشطار جزئي للذات عن ذاتها، فالذات هي النموذج الأمثل الذي يقدر الأشياء بما في ذلك فاطمة، الأمر الذي أسهم في توجيه معنى القصيدة لصالح الذات (الرجولية) واستعلائها حتى بدت القصيدة كما لو كانت نظيرا لأنساق ثقافية واجتماعية"[8: 108][7] .

ثانيا: ثنائية الذات/ الناقة:

إن في موضوعة الناقة ما يدل على إمكانية القطع بقوة، وذلك عندما تتجاوز الذات فاطمة "بإنشاء علاقة اتصال حميمة مع الناقة التي تبدو مسليتها من هم (فسلّ الهم عنك بذات لوث)"[5: 35] وترمي الذات من خلال طرق موضوع جديد هو موضوع الناقة إلى الابتعاد عن فاطمة، والانطلاق نحو تشكيل حركة جديدة في القصيدة هي حركة الناقة التي تكسر امتداد فاطمة، وتنتقل إلى موضوع آخر في إطار تغيير يؤطر لما هو أفضل حسب سياق القصيدة (فسلّ الهم) ولتنشأ في ثنايا ذلك ثنائية أخرى كبيرة هي ثنائية فاطمة/ الناقة المكتنزة بعدد من الثنائيات الصغيرة (الهشاشة/ القوة) (النعومة/ الصلابة) (الراحلة بمفردها/ الراحلة مع الذات) (المبتعدة/ القريبة) (المحجبة/ المكشوفة) (المختفية/ الظاهرة) فالأهم هو التغير، وفي ذلك شيء من الرفض الضمني لفاطمة باستحسان الناقة إذ "ينفتح النص على صورة (الناقة) المرسومة على هوى (الذات) ورغبتها في الشعور بالقوة التي هي وسيلتها إلى التفتي والتمرد وتحدي الآخرين، فجاءت ممثلة لكل تلك الدلالات، فنجد (الشدة) في (عذافرة، كمطرقة القيون) والحدة والسرعة (ذات لوث/ صادقة الوجيف/ كأن هرا يباريها) والضخامة (كساها سوادي الرضيخ من اللجين تامكا فردا، كأن مواقع الثفنات منها معرس باكرات الورد جون/ يجذ تنفس الصعداء منها قوى النسع...) وهي كالسفينة في ضخامتها وصلابتها وقدرتها على اختراق الأرض (كأن القور والأنساع منها على قرواء يشق الماء جؤجؤها..) وتلك دوال متناظرة تمنح منتجا دلاليا هو القوة"[5: 35– 36]:

فسل الهم عنك بذات لوث عذافرة كمطرقة القيون
بصادقة الوجيف كأن هرا يباريها ويأخذ بالوضين
كساها تامكا قردا عليها سوادي الرضيخ مع اللَجين
إذا قلقت شددت لها سنافا أمام الزَّور من قلق الوضين
كأن مواقع الثفنات منها معرس باكرات الوِرد جون

[6] تم توظيف الثنائيات الضدية في القصيدة لتتدفق بالمعاني لصالح الذات فلا تغدو القصيدة لذلك مملة رتيبة.

[7] تلك إشكالية عانى منها البنيويون الذين يرفضون الربط بين النظام اللغوي الداخلي وأي أنظمة أخرى خارجية، فهل النص الأدبي بنية مغلقة مستقلة، أو بنية نظيرة لأنساق عامة أخرى ليست أدبية؟ أي بين انغلاق النص واستقلال العلامات، وبين كون النص نظيرا لأنساق ثقافية واجتماعية واقتصادية.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

يجذ تنفس الصعداء منها قوى النسع المحرم ذو المتون

كأن الكور والأنساع منها على قرواء ماهرة دهين

يشق الماء جؤجؤها وتعلو غوارب كل ذي حدب بطين[6: 165– 191][8]

ولكن هل تماثلت فاطمة مع الناقة فعلا من خلال تشبيههما بالسفينة، وكلتاهما دال على الضخامة؟ لا. لقد شُبهت فاطمة ومجموعة صاحباتها الراحلات معها بالسفين جمع سفينة (يشبهن السفين وهن بخت) كما شبهت حمولتهن بالجمع أيضا (كأن حمولهن على سفين) ففاطمة جزء من مجموع، بينما حظيت الناقة بمفردها بالتشبيه بالسفينة مع زيادة في التفصيل:

كأن الكور والأنساع منها على قرواء ماهرة دهين

يشق الماء جؤجؤها وتعلو غوارب كل ذي حدب بطين

وفي وجود السفن في الجهتين (فاطمة والناقة) ما يدل على توافق واختلاف. يدل التوافق على تعلق الذات بكليهما، ويدل الاختلاف على تميز الناقة– السفينة التي تتجاوز حركة فاطمة على ناقتها، ذلك لأن الذات هي التي تمتطيها، فتعلو بها الأمواج المرتفعة وتنساب من فوقها بخفة بينما تسير ناقة فاطمة بحركة بطيئة، وإذا كانت ناقة فاطمة تظهر وتختفي، فإن الناقة التي تمتطيها الذات تظهر من غير أي إشارة للاختفاء، وبذلك ننتقل من موضوعة إلى أخرى، أو إلى موضوعتين متقابلتين، وينتقل بذلك كل موصوف إلى خصوصيته، مع ميل واضح لجانب الناقة.

تبني الذات تصوراتها بشكل أكثر قوة من خلال الناقة، كأن الحديث عن ذاتها من خلال فاطمة لم يحقق الغاية المثلى التي تبتغيها، فانطلقت إلى الحيوان لتتمثل من خلاله ما تريد، فأسبغت عليه من الأوصاف أكثر مما أسبغت على فاطمة (ذات لوث/ عذافرة/ كمطرقة القيون/ صادقة الوجيف/ كأن هرا يباريها..إلخ) في تناغم متناسق بين ضخامة الناقة وقوتها وحركتها بحيث تبدو بصورة نموذجية أمام الذات تعوضها عن الاضطراب الذي عانته مع فاطمة، فالناقة هي الموضوع الذي تتوحد من خلاله الذات بصورة أكبر مما سبق مع فاطمة، وتدفع به نحو القادم بقوة وضخامة ونشاط. إنها تتجه نحو الحياة مرة أخرى، بكثير من الثقة، ولكن في عمق هذه الثقة مازال الصراع

[8] ذات لوث: ذات قوة. عذافرة: صلبة شديدة. القيون: الحدادون. الوجيف: ضرب من السير. يباريها: يعارضها ويسير معها. الوضين: حزام الرحل. التامك: السنام المرتفع. قرد: ملبد بعضه على بعض. السوادي: النوى. الرضيخ: نوى التمر المدقوق. اللجين (بفتح اللام المشددة): ما تلجن أي تلزج من ورق أو علف. السناف: حبل. الزور: الصدر. الثفنات: واحدتها ثفنة وهي من البعير والناقة: الركبة، وما مس الأرض من كركرته وأعضائه إذا برك. المعرس: موضع التعريس، والتعريس: النزول آخر الليل أو أوله. الورد: الماء الذي يورد. باكرات الورد: يعني القطا. جون: سود. يجذ: يقطع. الصعداء: النفس الممدود إلى فوق. قوى النسع: طاقات الحبل، واحدتها قوة. المحرم: الذي لم يدبغ. ذو المتون: ذو القوى. الكُور: الرحل. الأنساع: الحبال. قرواء: سفينة طويلة. ماهرة: سابحة. دهين: مدهونة، مطلية بالزيت. الجؤجؤ: الصدر. الغوارب: الأمواج. الحدب: ارتفاع الموج. البطين: الواسع.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

مستمرا، وقد وجدت ذاتها مع الحيوان لأنها تنسج معه ما تريد على المنوال الذي تريد، وبغير ممانعة، وهو ما تريد الذات أن تراه لنفسها "وهنا يتراءى التحام الذات بالناقة جليا (قمت أرحلها بليل)"[5؛ 36]:

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوّه آهة الرجل الحزين[6: 194] [9]

ولكن لماذا الليل؟ ربما لأن الذات تجد "في الظلام حافزا قويا للارتداد إلى كينونتها، والتأمل في حركة الزمان وعواقبها"[9: 74] وربما لأن الليل يزيد من حدة المفارقة والتحول إلى زمان مختلف، ويعين على استشراف حدود الكامل والمطلق لانعدام تعيين الموجودات فيه موفرا للإنسان لحظة رسم تأملاته بهدوء وسعة، ومن هنا بدت الناقة السارية وسيلة جديدة للذات للنجاة وكذلك "للتحدي ولمجابهة المخاطر ومنافحتها، ومن هنا الحرص على جلاء صور القوة والصلابة والمتانة والضخامة فيها"[5: 36].

تنطلق الذات في انبثاقة جديدة مع الناقة بوصفها دالا يرمز إلى تحول مستجد يمنحها فرصة العثور على وجودها المأمول، فالناقة بحركتها القوية النشطة تبشر بأفق قادم، وتمنع التردد والاضطراب بغية الوصول إلى وضع جديد ينقذ الذات من واقعها الأول ويدخلها إلى عالم من الحياة تتقدم فيه بطريقة منسابة يغدو معها هذا التحول مصدر فرح كبير لها (فسلّ الهم عنك بذات لوث) إنها تحتفل بذاتها عن طريق الاحتفاء بحركة الناقة السريعة.

لكن ذلك لم يستمر طويلا إذ استحالت علاقة الاتصال بين الذات والناقة "إلى شيء من السخط والضيق والتذمر والنفور فيما يشي بعلاقة انفصال بين الناقة والذات، فتراءت الناقة متأوهة شاكية باكية (أهذا دينه أبدا وديني/ أكل الدهر حل وارتحال/ أما يبقي علي وما يقيني) وتوالي الاستفهام دال على التوتر والسخط والضيق"[5: 36]:

تقول إذا درأت لها وضيني أهذا دينه أبدا وديني

أكل الدهر حل وارتحال أما يبقي علي ولا يقيني[6: 195– 199] [10]

تنقلب الذات فتعود إلى الانفصال مرة أخرى عندما تضع رغبتها فوق طاقة الناقة المتشكية لبناء تصور يتجاوز الإنسان والحيوان كمن يحاول الانعتاق من ذاته، فتبدو انطلاقة الذات أكثر مما تحدثت عنه من انسيابية الناقة في المشي، وهي بذلك لا تقصي الآخر ولا تبعده لأنها مختلفة معه فحسب، ولكن لأنها تريد أن تتحقق في صورة اختلاف أمثل يفقد مبررات قوته عند ارتباطه بالناقة تضادا. إنها لا تقصي الآخر بهدف إبعاده، بل بهدف إثبات ذاتها بصورة أنموذجية مختلفة، ولكنها لا تستطيع ذلك إلا من خلال مظاهر حياة يومية لا يمكنها تجاهلها فتستحضر عينيتها كأمر واقع بإزاء تدفقها الحيوي نحو ما تريد، ولذا فإنها تجاوبت مع الناقة ابتداء في تشكيها، وإن جاء ذلك التشكي على لسان الناقة، ففي "الاستفهام الأول تشترك الناقة والذات في الشكوى من الألم (أهذا دينه

[9] أرحلها: أجعل الرحل عليها. التأوه: التوجع. يقال: تأوه آهة، أي توجع.

10درأت وضين البعير بسطته على الأرض ثم أبركته عليه لتشده به. دينه: دأبه وديدنه. يبقي علي: يرحمني. يقيني: يحفظني ويصونني.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

أبدا وديني؟)"[5: 37] "ثم يعمّى ذلك الاشتراك (أكل الدهر حل وارتحال؟)"[5: 37] وهذا خاص بالناقة التي ينبهم عليها أبعاد ما ترمي إليه الذات من وراء هذا الترحال الدائم، "ثم ينفلت عقده فتختص (الناقة) بطلب النجاة (أما يبقي علي وما يقيني؟)"[5: 37] في إشارة منها إلى كلالها وتعبها، مما لم يندرج على مثله الشعر الجاهلي، و"يشي بعلاقة الانفصال بين الناقة والذات"[5: 37] لقد عجزت الناقة عن تلبية مطالب الذات التي تتجه نحو مسار غير معروف، ربما يكون اجتماعيا، وربما يكون ثقافيا، وربما يكون اجتماعيا ثقافيا،وربما يكون سلطويا، وربما يكون دينيا، ولعل هذا – في مجموعه– يشير إلى اقتراب حدوث بنية انفراج في المجتمع الجاهلي أكثر من كونه مسألة شخصية[10: 45–46],[11: 49–50] وذلك من خلال تأكيد الذات على الاختلاف إلى درجة أن بدا الاختلاف متطرفا من خلال تكراره على أكثر من جهة، باحثا عن احتمالات تقدم نفسها كما لو كانت أمرا يقينيا، بغض النظر عن تحديد نوعية تلك الاحتمالات، لكن اتجاهها –على الأرجح– يتجاوز نمطية المجتمع الجاهلي. وهذه الذات ليست متهافتة أو قلقة من خلال الانتقال من موضوع إلى آخر، ولكنها موحية وكارزمية وفق تصور "القيم والتصورات والمفاهيم الأولية كما صاغها هرمان خان وأنطوني فيبنر استنادا إلى سوروكين في دراسته الشهيرة (الديناميكيات الاجتماعية والثقافية)"[12: 140–141].

ومن هنا لم تسمح الذات للناقة بالراحة وظلت تمتلك قدرتها على السيطرة عليها "والاستبداد بها، واعتلائها، بغية الوصول إلى ما تشتهي وترتجي، فنجد (ثنيت زمامها، وضعت رحلي.. رحت بها...) وهي دوال متناظرة تشي بمفهوم الذات وتصورها لمعنى الوجود مع الآخر، وكيفية الاتصال الحميم به"[5: 37]:

ثنيت زمامها ووضعت رحلي ونمرقة رفدت بها يميني

فرحت بها تعارض مسبطرا على صحصاحه وعلى المتون[203:6][11]

لم تجد الناقة مناصا من الاندفاع في المشي بالرغم عنها، وأن تتحول إلى أداة طيعة لتنتقل إلى ما هو أجمل من وجهة نظر الذات التي ترغمها على الانقياد لها، فيخترق خطاب الذات الناقة صارما بغير معارضة، فهي الآخر الوحيد المتوافق مع رغبات الذات رغم ما أبدته من تذمر، فلم يحدث الانفصال بينهما، ومن ثم ظهر البعد الزماني أكثر تواصلا (من النهار إلى الليل) فتحركت الناقة بخفايا رغبة الذات التي لم تفصح عن تفاصيلها، لكن نتيجتها ظهرت في الاندفاع في السير بغير انقطاع بوصف ذلك رمزا لفعل متطلع يحاول التغلب على الظهور والاختفاء اللذين برزا في رحلة فاطمة.

[11] ثنيت زمامها: جذبته. الرحل: مركب للبعير والناقة يوضع على ظهره للركوب. النمرقة: الوسادة الصغيرة يتكأ عليها. جمعها: نمارق.. تعارض: تأخذ عرض الطريق أي ناحيته. المسبطر: الممتد. وهو الطريق. الصحصاح: ما استوى من الأرض وجرد. المتون: جمع متن وهو ما صلب من الأرض وغلظ.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

ثنائية الذات/ عمرو:

لعل السلطة التي فرضتها الذات على الناقة هي التي شجعتها لمخاطبة عمرو بمثل تلك الطريقة الحاسمة الداعية إياه إلى نبذ الحيرة وعدم الثقة، وفي عصور التحولات يتم الانقضاض على كثير من رغبات الأفراد الخاصة التي عليهم أن ينبذوها ملتزمين لقوة الصرامة التحويلية القاهرة لهم، لأنهم غرباء عن واقع أجمل يراد لهم من وجهة نظر الموجّه، ولم يروه بعد:

إلى عمرو ومن عمرو أتتني أخي النجدات، والحلم الرصين
فإما أن تكون أخي بحق فأعرف منك غثي من سميني
وإلا فاطرحني واتخذني عدوا أتقيك وتتقيني[6: 208– 212]

تحاول الذات استمالة الآخر إليها (أخي النجدات، والحلم الرصين) ولكن يتراءى "عمرو هنا مستهينا بالذات غير حريص على احترامها، ومن هنا هذه الحدة في التخيير (إما.... وإلا....) ولا يكون الخيار إلا ما بين (الإخاء الحق) أو (العداء الصريح) وهي رحلة بين الأضداد، فنجد (الخير) مضادا (للشر) و(الحب) مضادا (للكراهية) و (فاطمة وعمرو) مضادين (للذات المتكلمة في النص)"[5: 37– 38].

لقد خشيت الذات من حالة رفض يبديها عمرو ويعرقل ما تصبو إليه، ولذلك فإن أظهر ما طرحته هو خيار الأخوّة أو العداوة، وهو خطاب اجتماعي وموقفي واضح (فإما أن تكون أخي) (وإلا فاتخذني عدوا) بعيدا عن الكلام العشقي الذي جرى مع فاطمة، والكلام الوجداني الذي جرى مع الناقة. إنها عمليا تقوم بعملية اختبار للآخر من خلال وضع نفسها عنصرا أنموذجيا متميزا في الخطاب يعطيها حق السؤال الحازم عن تحديد وضع الآخر ما إذا كان معها أو ضدها.

وعليه، ومن كل ما سبق، فقد برز حضور الذات من خلال الآخر المتنوع الذي برزت من خلاله أنموذجا عزز فيها ذاتيتها، ومن ثم نشأت المفارقة بينها وبين ما عداها. وحتى لا تتسم بالتفتت من جراء التعدد، لجأت إلى فكرة الاستعلاء التي لا ترضى عن أي آخر امرأة كان أو رجلا أو حيوانا[12] ففكرة الاستعلاء مرتبطة بإطار تصوري مثالي يدفعها للتواصل مع الآخر مؤقتا ثم الانفصال عنه. ومن هذا المنطلق لا يمكن تشخيص الذات بتحديد معين، وإنما في إطار كلي، ولا يمكن إيجاد توصيف لحالتها المنفعلة إلا رغبة الاندفاع العام إلى واقع مختلف.

وإذ اتسمت الذات بالكلية فإن الآخرين المتعددين –بناء على ذلك– يتسم كل منهم بالجزئية، وقد أوجدتهم الذات نفسها انطلاقا من تعدد حالاتها، وكلما استشعرت وجودها من خلال أحدهم فقدته، لعدم قدرته على التماشي معها إلى آخر الشوط، لتبحث عن آخر مختلف، ثم تفقده حتى لو بدت في قمة الاتصال معه، مما ورّث مفارقات حادة

[12] ربما مثلت الناقة معادلا موضوعيا للذات نفسها في نقطة معينة، هي نقطة الانطلاق المستمر وعدم الوقوف، فتوافقت معها.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

في القصيدة، وتظل من جراء هذا "في ظمأ دائم للارتواء من الحياة"[71:9] فهذه الرموز الحياتية على جودتها: المرأة، والناقة، والصديق لم تحقق للذات وجودها الذي تريد، وحينئذٍ لم تثق إلا في مصاحبة نفسها:

لعلك إن صرمت الحبل مني أكون كذاك مصحبتي قَروني [6: 164][13]

وهي العلاقة الخاصة القوية الوحيدة التي تعلنها الذات في القصيدة والتي لها في ما يبدو مسار خاص ينجز رؤية مركبة خاصة بالذات تقابل كل تلك التعقيدات مع الآخر، فعلاقة الذات بالجسد والروح (المرأة) وعلاقتها بالأمل (الناقة) وعلاقتها بالمجتمع (عمرو) كلها رفضت من خلال التمثلات السابقة، فتحول هؤلاء إلى منظومة غير مقبولة، ولم يظهر في القصيدة ما يراهن على تعزيز وجود الذات سوى ذاتها. لقد مارس الآخر ضغطا على الذات دفعها لأن ترفضه بمثل هذه الحدة، وفي ذلك ما يشير إلى أن رغبات الذات وأحلامها ظلت محبوسة أو معرقلة بمقولات معينة درج عليها المجتمع والنظام الثقافي ممثلا بالشعر في اتجاهاته الرؤيوية العامة، وتسعى جاهدة لمحاولة استشفاف رؤيتها الخاصة بها عن طريق الرفض، ولأنها لا تستطيع بمفردها إنجاز ذلك مهما بلغت من التميز ظلت رؤيتها مجرد إشارات عامة، غير محددة، لكنها ملهمة.

إن ما هو إيجابي وما أكدته الذات من خلال تكراره هو أن تكون مختلفة مع الآخرين، وتعد هذه العناصر الثلاثة (المرأة، والناقة، وعمرو) من أبرز العناصر الأساسية التي أمكن الاختلاف معها، والتي ظلت متصلبة في موقفها رغم محاولات الذات رفضها، باستثناء الناقة التي تجاوبت مع الذات بعد تذمرها منها، كما لو كانت معادلا موضوعيا لها، وقد ابتدأت القصيدة مع الحبيبة، وتوسطت مع الناقة، وانتهت مع الصديق، "وهذا يفضي بنا إلى الوقوف قليلا عند الموضوع الشعري الذي اكتنف القصيدة. والحق أن الموضوع الشعري بالإطلاق يتسع حتى يشمل دوائر متداخلة، وقد يضيق حتى لا يتجاوز الذات في صراعها الوجودي على المستوى النفسي أو الفكري رؤية للحياة وموقفا منها"[5: 38] ولا يمكن الفصل بين جانبي الموضوع الشعري هذين (النفسي، والفكري) اللذين يشكلان اكتمالا للذات، ويؤدي كل منهما دورا مهما في بناء أبعاد النص الدلالية، وإن كان الجانب النفسي أقرب إلى الوضوح بعناصره المباشرة (متعيني/لا تعدي/ما وصلت/ لقطعتها/ فأما أن تكون أخي بحق وإلا فاطرحني...) بينما تشير جهة الجانب الآخر (الرؤيوي– الفكري) إلى عناصر بعيدة في متحول المكان والزمان (فسل الهم عنك بذات لوث/ عذافرة/ صادقة الوجيف/ شددت لها سنافا/ فألقيت الزمام لها فتامت/ غدت قوداء منشقا نساها/ فرحت بها تعرض مسبطرا).

وقد ظلت الذات إلى آخر بيتين في القصيدة في حال من الازدواج بين خير تريده، وشر يراد بها:

وما أدري إذا يممت وجها أريد الخير أيهما يليني

أ ألخير الذي أنا أبتغيه أم الشر الذي هو يبتغيني[6: 212–213]

[13] صرمت الحبل: قطعته، كناية عن قطع الوصل. القَرون (بفتح القاف) النفس.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

إنها تسعى لامتلاك وجودها الذي يعرقله عليها آخرون، وسيأتونها في المستقبل، وما يعنينا هو هذا الاختلاف الذي ظل مهيمنا إلى آخر القصيدة حتى في إشاراته المستقبلية، فثمة من سيعمل على عرقلة الذات وقمعها تم التعبير عنه (بالشر الذي هو يبتغيني) ولكنها ظلت تشير إلى الخير الذي تبتغيه، فمهما كانت صورة الآخر القادم المتموضع في الشر فإن إمكانية الانتصار عليه –بالخير الذي تبتغيه الذات– واردة اعتمادا على ما سبق لها من انتصارات.

لقد مثلت ثنائية الذات والآخر إيقاعا استراتيجيا حكم القصيدة من أولها إلى آخرها، فتوزع الآخر داخل فضاء القصيدة النصي، كل في مكانه، بحيث يعمل على إبراز ذاته بصورة واضحة، فليس ثمة حيز موظف توظيفا مضطربا في القصيدة، بغض النظر عن طول بعض الوحدات وقصر بعضها. ويمكن وضع الناقة من حيث التراتب الدلالي الإيجابي في الدرجة الأولى، بوصفها شكلت في بعض أبيات القصيدة معادلا موضوعيا للذات، ثم فاطمة، ثم عمرو، فالآخرون الآتون في المستقبل، ولكل منهم سلبياته، فلئن امتازت الناقة بالتذمر، فقد امتازت فاطمة بالزوغان عن الذات، وعمرو بالمراوغة وعدم الوضوح، والقادمون بالشر. وتكرر الاختلاف مع كل واحد من هؤلاء بصورة مغايرة دلت على تفكير جدي يظهر من خلال البعد الفني– الجمالي، والغاية هي تشكيل معنى مختلف بحيث "يتشكل الوجود الإنساني وفق المعنى الفني الذي يحدث هذا التحول"[13:13].

إن الآخر الذي تفاعلت معه الذات لإبراز رؤيتها مؤسَس في القصيدة جماليا، لكنه لا يشكل مع الذات اكتمالا لدلالة واحدة كما يرى البنيويون، بل ثمة استقلالية لوجود كل منهما عن الآخر[14] وقد مضت الدلالة لصالح الذات التي استفادت من الآخر ضديا في إطار انفتاحها على رؤيتها من خلاله، لكنها لم تتكامل معه، بل رفضته بوصفها تنزع نحو قيم نوعية خاصة، فثمة اختلاف بين وعيين كبيرين في القصيدة برزا من خلال هذه الثنائية الضدية لصالح وصول الذات لخصوصيتها وما ترغب فيه، و "هنا تتحدث الذات المتكلمة عن ذاتها، وموقفها من الآخر، وتلخص تجربتها في سؤال محدد هو كيف يمكن للذات أن تعيش مع الآخر دون أن يكون الآخر جحيمها؟ فتنبثق من ثنايا ذلك السؤال ملامح رؤية وجودية تسعى لتضخيم دور الذات في مقابل إلغاء وإخفات دور الآخر، كائنا ما كان حبيبا أم صديقا أم أي صفة أخرى"[5: 40] فهيمنة الحضور الخاص للذات واضحة في القصيدة من خلال عدم رضوخها لضغوطات الآخرين عليها، وفي كل اختلاف تبرز نقلة نوعية للذات إلى واقع مختلف بما في ذلك إشارات المستقبل.

[14] "ربطت البنيوية بين العلامة والمتضادات الثنائية، فجمعت بين الدلالة والتماثل بين المتقابلات. وتتبنى التفكيكية مفهوم الثنائيات الضدية، لكنها تبتعد عن التوفيق بين الأضداد"[114:8] [14: 118–119].

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

الخاتمة:

عملت الذات على تطويع الآخر لصالحها بغية تمكين وجودها، ففشلت، غير أن كل آخر تضادت معه قدم جانبا نوعيا مكنها من بناء صورتها التي اكتملت من خلال مجموعة تلك المتضادات التي تعالت عليها بنموذجية واضحة، وهي (فاطمة. الناقة. عمرو. الآتون في المستقبل) وإن توافقت مع الناقة برهة شكلت فيها معادلا لها.

إن تلك التضادات بقدر ما أزعجت الذات صنعتها، وقدمت إشارات دقيقة في الكشف عن كينونتها التي لم تنهر أمام الآخر أيا كان، وانتهت القصيدة ولم تكمل الذات تضاداتها بعد من خلال آخر قادم في المستقبل رمزت إليه بكلمة (الشر) مما يشير إلى أنها –وإن بنت ذاتها– مازالت تبحث عنها في حالة من الصراع والاستكشاف المستمر.

CONFLICT OF INTERESTS

There are no conflicts of interest

المصادر:

[1] كربية، كريمة، محمد، "**اللغة والهوية**"، *مجلة الآداب، جامعة الملك سعود*، المجلد27، العدد1، السعودية، الرياض، (يناير2015م).

[2] عبدالنور، ابن داود، "**المدخل الفلسفي للحداثة، تحليلية تمظهر نظام العقل الغربي**"، الطبعة الأولى، لبنان، بيروت، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، (2009م).

[3] تودوروف، تزفيتان، "**فتح أمريكا، مسألة الآخر**"، الطبعة الأولى، مصر، سينا للنشر، (1992م).

[4] سامي، الوافي، "**المثاقفة النقدية وسؤال الهوية: تفاعل الذات بالآخر**"، *مجلة الآداب، جامعة الملك سعود*، المجلد26، العدد2، السعودية، الرياض، (مايو2014م).

[5] البار، عبدالله، حسين، "**ثنائية (الأنا) و (الآخر) في نونية المثقب العبدي**"، الطبعة الأولى، الجمهورية اليمنية، صنعاء، مركز عبادي للدراسات والنشر (2004).

[6] العبدي، المثقب، "**ديوان شعر المثقب العبدي**"، تحقيق وشرح وتعليق حسن كامل الصيرفي، (د. ط) مصر، القاهرة، معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، (1971م).

[7] شكري، إسماعيل، "**في معرفة الخطاب الشعري، دلالة الزمان وبلاغة الجهة**"، الطبعة الأولى، المغرب، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، (2009م).

[8] الديوب، سمر، "**مصطلح الثنائيات الضدية**"، عالم الفكر، المجلد41، العدد1، الكويت (سبتمبر2012م).

[9] ملحم، إبراهيم، أحمد، "**جماليات الأنا في الخطاب الشعري، دراسة في شعر بشار بن برد**"، الطبعة الأولى، الأردن، إربد، دار الكندي، (2004م).

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

[10] سركيس، إحسان،"**مدخل إلى الأدب الجاهلي**" الطبعة الأولى، لبنان، بيروت، دار الطليعة،(نوفمبر 1979م).

[11] ناصف، مصطفى،"**قراءة ثانية لشعرنا القديم**"، الطبعة الثانية، لبنان، بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر، (1981م).

[12] عباسي، نعمان، "**التكاملية– التعددية، في المقاربات السوسيولوجية كاستراتيجية معرفية**"، مجلة *عالم الفكر*، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، المجلد41، العدد1، الكويت، (سبتمبر 2012م).

[13] الجهاد، هلال، "**جماليات الشعر العربي، دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي**"، الطبعة الأولى، لبنان، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، (حزيران/ يونيو 2007م).

[14] إبراهيم، عبدالله، والغانمي، سعيد، "**مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة**" الطبعة الثانية، لبنان، بيروت، المركز الثقافي العربي، (1996م).

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq